وليد حباس*

مفهوم الاستعمار الاستيطاني
نحو إطار نظري جديد

بدأ يتبلور منذ منتصف التسعينيات من القرن الماضي، حقل دراسي جديد يعنى بالاستعمار الاستيطاني، باعتباره أحد أهم أشكال الاستعمار الأوروبي الحديث. وعلى الرغم من أن العديد من الباحثين والمختصين كانوا تطرقوا في السابق إلى هذا النوع من الاستعمار، وتركوا مؤلفات ذات أهمية (Krautwurst 2013, 59- 60)[1]، إلا أن الحقل الدراسي الجديد جعل من الاستعمار الاستيطاني مقولة تحليلية، وإطارا نظريا في طريقه إلى التبلور والنضوج. سأعمل في هذه المقالة، على تقديم ملامح هذا الإطار النظري، عبر شرح مفهوم الاستعمار الاستيطاني باعتباره يختلف بنيوياً عن الاستعمار الاستغلالي. وسأستند الى آخر الأدبيات حول الموضوع لأسوق أمثلة أقارن فيها بين حالات مختلفة من مشاريع الاستعمار الاستيطاني، من أهمها المشروع الصهيوني. إن الإطار النظري الجديد من شأنه أن يفسر الممارسات المختلفة (عبر الزمان والمكان)[2] التي تعرض لها الفلسطينيون، كسكان أصلانيين، على مدى أكثر من مئة عام من قبل المستعمرين الصهاينة.

لقد بدأ الانشغال الأكاديمي الحقيقي بمفهوم الاستعمار الاستيطاني (settler colonialism)، باعتباره مقولة تحليلية، في منتصف عقد التسعينيات 1990s بعد ظهور وانتشار أعمال تأسيسية مهمة في حقلي الانثروبولوجيا والسوسيولوجيا. وتعتبر أعمال كل من باتريك وولف (Patrick Wolfe)،وآني كومبز (Annie Coombes)، وسوزان بيدرسون (Susan Pederson)،

* طالب ماجستير في دائرة علم الاجتماع- بيرزيت. البريد الالكتروني: Walidhabbas1980@gmail.com.

بينما يتمثل هدف الاستعمار الاستغلالي في اقتطاع فائض القيمة عبر دمج قوة عمل السكان الأصلانيين الرخيصة بالموارد التي تتوفر عليها المستعمَرة، فإن هدف الاستعمار الاستيطاني هو الحصول على الأرض، والتي سيتم عليها تدشين تشكيلة رأسمالية جديدة لا مكان فيها للسكان الأصلانيين. وقد عبر وولف عن ذلك بالقول إن الاستعمار الاستيطاني يقوم على «منطق الإزالة»- أي إزالة السكان الأصلانيين.

وكارولين ألكينز(Carolin Elkins) ولورينزو فيراسيني (Lorenzo Veracini)، وغيرهم، من أهم الأعمال التأسيسية في هذا المجال.[٣] وتم في عام ٢٠١٠ تأسيس مجلة دراسات الاستعمار الاستيطاني (settler colonial studies) والتي ساهمت في تطوير المفهوم.

ولعل أفضل طريقة لمقاربة مفهوم الاستعمار الاستيطاني هي من خلال مقارنته بالاستعمار الاستغلالي (exploitation colonialism)، بحيث نضع الظاهرتين في سياق التجربة التوسعية الأوروبية.

في مقدمة عمله التأسيسي لدراسة الاستعمار الاستيطاني من منظور انثروبولوجي، يقوم وولف (Wolfe 1999, 1) بالمقارنة التالية: «على العكس من التشكيلات الاستعمارية [الاستغلالية]... فإن المستعمرَات الاستيطانية لم تتأسس بالدرجة الأولى بهدف استخلاص القيمة الزائدة من عمل السكان الأصلانيين. وإنما تقوم على فرضية إزالة السكان الأصلانيين عن (أو نقلهم من) أرضهم».

ويمكن الاستناد إلى عبارة وولف، وأعمال الباحثين الآخرين في هذا المجال–أهمهم لورينزو فيراسيني– لشرح مفهوم الاستعمار الاستيطاني الذي يمتاز، أولا، بعلاقته الاقصائية مع السكان الأصلانيين؛ وثانيا، بعلاقته المؤقتة مع المركز الإمبريالي؛ وثالثاً، بعلاقته الدائمة مع الأرض المستعمَرة؛ ورابعاً، بكثافة الخطاب الأيديولوجي والإقصائي الذي يوظفه؛ وخامساً، ببنائه لتشكيلة رأسمالية غير تابعة؛ وسادساً، بهندسته الاجتماعية الدقيقة.

إزالة السكان الأصلانيين

بينما يتمثل هدف الاستعمار الاستغلالي في اقتطاع فائض القيمة عبر دمج قوة عمل السكان الأصلانيين الرخيصة بالموارد التي تتوفر عليها المستعمَرة، فإن هدف الاستعمار الاستيطاني هو الحصول على الأرض، والتي سيتم عليها تدشين تشكيلة رأسمالية جديدة لا مكان فيها للسكان الأصلانيين. وقد عبر وولف عن ذلك بالقول إن الاستعمار الاستيطاني يقوم على «منطق الإزالة»– أي إزالة السكان الأصلانيين (Wolfe 2006, 387). في هذا السياق، فإن المقارنة بين استعمار أستراليا والهند، على سبيل المثال لا الحصر، تصبح ممكنة. فهدف المستعمر في الهند كان السكان الهنود ذوي الأيدي العاملة الرخيصة، على العكس من أستراليا حيث الأرض هي موضوع الاستغلال، وحيث عمِل المستعمِر على تفريغها من سكانها الأصلانيين. في السياق ذاته، وبشكل حذر، يمكن المقارنة ما بين الاستعمار البريطاني و الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لأرض فلسطين.

ويميز فيراسيني بين المستعمِر الذي يخاطب المستعمَر بقوله «أنت، اعمل لدي»، وبين ذلك الذي يقول «أنت، ارحل من هنا» لتترك لي الأرض فارغة (Veracini 2011, 1). ومع أن الاستعمار الاستغلالي يقوم على استغلال السكان الأصلانيين إلا أن عبارة «اعمل لدي» يجب أن تُفهم بشكل عام جدا، وتعني في النهاية أن وجود المجتمع المستعمَر ضروري لخدمة المستعمِر. في المقابل، فإن الاستعمار الاستيطاني يعتبر وجود السكان الأصلانيين معيقا لتطور مشروع المستوطنين في إنشاء مجتمع رأسمالي حداثي، على غرار الدول الأوروبية القادم منها: فهدف الاستعمار الاستيطاني ليس السكان الأصلانيين، وإنما أراضيهم.

لكن حالات الاستعمار الاستيطاني تنوعت في ترجمة عبارة «انت، ارحل من هنا»، فشملت الإبادة الجسدية، أو الإزالة عن الأرض، أو العزل في محميات؛ أو محو ثقافة الأصلانيين؛ أو الامتصاص؛ أو الاستيعاب. والاستيعاب قد يكون بيولوجيا من خلال التزاوج المختلط مع المستوطنين البيض للتخفيف من فصيلة دم الأصلانيين، أو قد يكون ثقافيا من خلال تجريد الأصلانيين من ثقافتهم واستبدالها بثقافة المستوطنين البيض (Glenn 2015,

وقد استند بعض الباحثين إلى منطق الإزالة (التي قد لا تكون جسدية بالضرورة) لتصنيف تجارب الاستعمار الاستيطاني عبر التاريخ الحديث. وهم بذلك حاولوا أن يفسروا كيف أن الاستعمار الاستيطاني حاول في بعض الحالات الإبقاء على السكان الأصلانيين، ومع ذلك كان بقاؤهم خاضعا لمبدأ الإزالة، والتي كانت تعني في هذه الحالات، إزالة اجتماعية، أو ثقافية، أو قومية، بحيث يبقي مجتمع السكان الأصلانيين دون أن يكون لهم دور في صياغة (والتأثير على) التكوين الاجتماعي لمجتمع المستوطنين الجدد.

57). في بدايات الاستعمار الاستيطاني في أستراليا، كانت عبارة «ارحل من هنا» تعني الإبادة الماديّة والجسديّة، واستدخال الأوبئة القاتلة، والتجويع حتى الموت. وقد شهد السكان الأصلانيين في أميركا الشمالية مصيرا مماثلا حيث تمت إبادة عشرات القبائل من السكان الأصلانيين، الأمر الذي أدى إلى مقتل الملايين، وإزاحة ملايين أخرى من الأصلانيين إلى ما وراء الحدود (Hixson 2013, 1). وتعتبر الإزاحة التي شهدها قسم كبير من المجتمع الفلسطيني ما بين عامي ١٩٤٧و ١٩٤٨ مثالا أخر.

لكن في حالات أخرى، عَنَت «ارحل من هنا» رحيل المكون الثقافي والعرقي للسكان الأصلانيين وتحويلهم إلى إنسان جديد يشبه المستعمِر الأوروبي. وقد حبذ وولف استخدام مفهوم إزالة السكان الأصلانيين (elimination)، بدل مفهوم الإبادة (genocide). فالإزالة قد تكون، بناء على وولف، إزالة ثقافية للمجتمع الأصلاني؛ أي استيعابه أو دمجه داخل مجتمع المستعمِرين دون أن يتأثر المجتمع الأخير من عملية الدمج. فمثلا، بعد أن تطور مجتمع الاستعمار الاستيطاني في أستراليا، وأصبحت الإبادات الجسدية ظاهرة غير مقبولة، لجأ المستعمرون إلى عزل نساء السكان الأصلانيين في معسكرات، وتلقيحهن من قبل المستعمرين. أما الأطفال من الجيل الثاني فتم وضعهم في أحياء مخصصة على أطراف المدن، استعدادا لاستيعاب الجيل الثالث منهم داخل المجتمع المستعمِر بعد التأكد من تبييضه ليس فقط بيولوجيا، وإنما ثقافيا أيضا (wolfe 2001, 871-873).

وقد استند بعض الباحثين إلى منطق الإزالة (التي قد لا تكون جسدية بالضرورة) لتصنيف تجارب الاستعمار الاستيطاني عبر التاريخ الحديث. وهم بذلك حاولوا أن يفسروا كيف أن الاستعمار الاستيطاني حاول في بعض الحالات الإبقاء على السكان الأصلانيين، ومع ذلك كان بقاؤهم خاضعا لمبدأ الإزالة، والتي كانت تعني في هذه الحالات، إزالة اجتماعية، أو ثقافية، أو قومية، بحيث يبقي مجتمع السكان الأصلانيين دون أن يكون لهم دور في صياغة (والتأثير على) التكوين الاجتماعي لمجتمع المستوطنين الجدد.

فمثلا، يقوم أوسترهامل بذكر «مستعمرات الاستيطان» (Settlement colonies) باعتبارها واحدة من ستة أشكال من التوسع الأوروبي. ولم يكن أوسترهامل غافلا عن أن «مستعمرات الاستيطان» على خلاف الاستعمار الاستغلالي تسعى إلى استبدال السكان الأصلانيين على أرضهم. ومع ذلك، حاجج بأن هناك ثلاثة نماذج من «مستعمرات الاستيطان»: الأول، يسمى نموذج نيو إنجلاند، ويقوم على «استبدال وحتى إبادة السكان الأصلانيين واقتصادهم. مثل المستعمرات البريطانية في نيوإنجلاند، والبريطانية والفرنسية في كندا، أو الاسترالية؛ والثاني، النموذج الإفريقي، والذي يعتمد اقتصادياً على قوة عمل السكان الأصلانيين، مثل المستعمرات الفرنسية في الجزائر، أو البريطانية في زيمبابوي، أو جنوب أفريقيا؛ والثالث، النموذج الكاريبي، حيث يعمل الاستعمار الاستيطاني على استيراد العبيد، مثل المستعمرات البريطانية في جامايكا، والبرتغالية في البرازيل (Osterhammel 1997, 11-12). لكن حتى في تلك الحالات التي يستفيد فيها الاستعمار الاستيطاني من قوة عمل السكان الأصلانيين، كما في النموذج الإفريقي الذي تحدث عنه اوسترهامل، فإن طبيعة العلاقة بين المستعمر والسكان الأصلانيين تبقى خاضعة لمبدأ الإزالة الاجتماعية والثقافية (وليس الجسدية– فما زالت قوة العمل الرخيصة ضرورية مؤقتاً). وقد أوضح فيراسيني في هذا السياق، أن الاستعمار الاستيطاني

وهنا تكمن معضلة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. إن عدم انتهاء الصراع مرتبط بعدم تمكن المستعمِر الصهيوني من إبادة كل السكان الأصلانيين: فمن جهة، هناك أكثر من ١٣ مليون فلسطيني، أقل من نصفهم يعيشون على الأرض المستعمَرة؛ ومن جهة ثانية، لا يزال السكان الأصلانيون يخضعون للاستعمار، ويطالبون بحقهم في تقرير المصير (أي عدم القدرة على إزالتهم جسديا)؛ وثالثا، وربما هذا ما يميز الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، استحالة استيعاب أو دمج السكان الأصلانيين ضمن مجتمع المستعمرين (إزالتهم اجتماعيا وثقافيا)؛ فالفروقات بين المستعمِر والمستعمَر لا تقوم على العرق، أو اللون، وإنما على الديانة.

يهدف في النهاية إلى إخفاء السكان الأصلانيين، حتى لو استفاد مؤقتاً من قوة عملهم. هذه الاستفادة المؤقتة قد تعني أن استراتيجيات الاستعمار الاستيطاني قد تمارس تجاه السكان الأصلانيين إلى جانب استراتيجيات الاستعمار الاستغلالي، بيد أن المبدأ الناظم في الاستعمار الاستيطاني هو إزالة السكان الأصلانيين، إما جسديا، وإما اجتماعياً (Veracini 2015, 25-26).

أراد المستعمرون في جنوب افريقيا، والتي تمثل هذا التمازج بين الاستغلال والإقصاء، أو بين الاستعمار الاستغلالي والاستعمار الاستيطاني، الأرض خالية من السكان الأصلانيين ليبنوا مشروعهم الجديد؛ لكن من جهة أخرى كانوا بحاجة للسكان الأصلانيين لتوفير أيد عاملة رخيصة (Cavanagh 2017, 290-293). ودفع هذا التناقض في تجربة جنوب افريقيا، المستعمر إلى عزل السكان الأصلانيين في معسكرات مغلقة. إن إبادتهم الجسدية ستهدد بناء دولة الاستعمار الاستيطاني لأنها ستترك المستعمرين بدون أيد عاملة رخيصة. ولعل عدم إزالة كل الفلسطينيين عن الأرض عام ١٩٤٨، ثم عام ١٩٦٧، في سياق تطور الاستعمار الاستيطاني الصهيوني قد أتاح للمستعمرين الصهاينة استدخال استراتيجيات الاستعمار الاستغلالي في سياق مشروعهم الإقصائي. فالمشروع الصهيوني يعمل على إزالة الوجود الفلسطيني من جهة (منطق الإزالة)، لكنه أيضا استفاد من قوة عملهم الرخيصة، خاصة بعد العام ١٩٦٧ (منطق الاستغلال الاقتصادي) (Lloyd 2012, 66).

وهنا تكمن معضلة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. إن عدم انتهاء الصراع مرتبط بعدم تمكن المستعمِر الصهيوني من إبادة كل السكان الأصلانيين: فمن جهة، هناك أكثر من ١٣ مليون فلسطيني، أقل من نصفهم يعيشون على الأرض المستعمَرة؛ ومن جهة ثانية، لا يزال السكان الأصلانيون يخضعون للاستعمار، ويطالبون بحقهم في تقرير المصير (أي عدم القدرة على إزالتهم جسديا)؛ وثالثا، وربما هذا ما يميز الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، استحالة استيعاب أو دمج السكان الأصلانيين ضمن مجتمع المستعمرين (إزالتهم اجتماعيا وثقافيا)؛ فالفروقات بين المستعمِر والمستعمَر لا تقوم على العرق، أو اللون، وإنما على الديانة. فبينما استطاع الاستعمار الاستيطاني في البرازيل وأستراليا استيعاب السكان الأصلانيين عبر تفعيل سياسيات معينة من التزويج (Miscegenation)،[٤] الا أن هذه السياسيات غير ممكنة في السياق الصهيوني، الذي ينقسم فيه المستعمِر والمستعمَر بناء على مقولة الديانة وليس العرق أو اللون.

باختصار، بينما يرغب الاستعمار الاستغلالي ببقاء السكان الأصلانيين على حالهم، ويعمل على احتجاز تطورهم، فإن الاستعمار الاستيطاني يعمل على إزالة السكان الأصلانيين، ويعمل على إنهاء وجودهم (الفيزيائي، أو القومي، أو الثقافي). ويلخص وولف هذا البعد المهم بقوله: «في اقتصاد [مجتمع] الاستعمار الاستيطاني، فإن السكان الأصلانيين هم الفائض [الذي لا لزوم له] وليس المستعمِرين» كما هو الحال في الاستعمار الاستغلالي (wolfe 1999, 3).

العلاقة مع المركز الإمبريالي

ولأن المستعمِرين في الاستعمار الاستيطاني يهاجرون بلا رجعة، فإن شبكة العلاقات التي تنشأ في سياق مشروعهم تختلف عنها في سياق مشروع الاستعمار الاستغلالي. وقد عبر فيراسيني (Veracini 2010 ,6) عن ذلك بقوله إن الاستعمار

إن العلاقة المثلّثة بين المستعمِر والسكان الأصلانيين والدولة الإمبريالية الأم قد تبدو أكثر تعقيداً عندما نفترض أن المصالح ما بين المستعمِر الاستيطاني والدولة الإمبريالية الأم لا تكون مشتركة في كل الحالات. فمثلا، يرى فيراسيني، أن الدولة الإمبريالية، في بعض الأحيان، تستخدم أجندات ضد مصالح المستوطنين (Veracini ٢٠١٤, ٦٢٨). بريطانيا تعتبر مثالاً على الدولة الإمبريالية التي سعت إلى احتضان مشاريع الاستعمار الاستيطاني، الأمر الذي أنتج تناقضاً في مصالحها تجاه المستعمرات:

الاستيطاني يُنشئ شبكة ثلاثية–العلاقة تضم المركز الإمبريالي، والمستعمِرين المستوطنين، والسكان الأصلانيين، وذلك على العكس من العلاقة الثنائية التي تحدث عنها أوسترهامل (١٩٩٧) في سياق شرحه للاستعمار الاستغلالي، والتي تتكون من الدولة الإمبريالية الأم مقابل الشعوب المستعمَرة، أو المركز مقابل المحيط (Osterhammel 1997). والتمييز هنا ليس كمياً بين عدد الأطراف التي تدخل في العلاقة، وإنما كيفيّ ايضاً.

في حالة الاستعمار الاستغلالي، فإن الدولة الإمبريالية الأم، حسب أوسترهامل، هي التي تتحكم بالقرارات التي تخص حياة الشعوب المستعمَرة، وهي المستفيد المباشر من دمج قوة عمل السكان الأصلانيين بالخيرات المادية التي تتوفر عليها المستعمَرة. وهي بذلك تعمل على احتجاز التطور الاقتصادي والاجتماعي للسكان الأصلانيين، عبر نهب فائضهم الاقتصادي، لتضمن استمرار العلاقة الاستعمارية أطول مدة ممكنة (Macqueen 2007, 141-143).

لكن في حالة الاستعمار الاستيطاني، فإن العلاقة تكون أكثر تعقيدا: يهاجر المستعمر الاستيطاني من الدولة الإمبريالية الأم ويبقى على علاقة استراتيجية معها إلى حين توطيد مجتمعه الاستيطاني الجديد (مثل المستعمِرين البريطانيين أثناء استعمار أميركا الشمالية)؛ أو أنه يهاجر من دولة أوروبية إلى المستعمَرة، لكنه يبني علاقات إستراتيجية مع دولة إمبريالية غير التي خرج منها لتصبح الدولة الأم الراعية لمشروعه (مثل المستعمِرين الصهيونيين الذين خرجوا من شرق أوروبا لكنهم بنوا علاقتهم في البدايات مع بريطانيا كدولة أم). لكن في كل الأحوال فإن علاقة الاستعمار الاستيطاني مع الدولة الإمبريالية الأم تبقى مؤقتة إلى حين انتهاء المشروع، والتحول الى دولة طبيعية. ففي الكثير من الحالات نجد أن المستعمِر الاستيطاني قام بما يسميه «حرب التحرير» ليقطع صلته بالدولة الأم التي خرج منها، والتي كانت حتى ذلك الوقت تستفيد هي الأخرى من المشروع.

إن العلاقة المثلّثة بين المستعمِر والسكان الأصلانيين والدولة الإمبريالية الأم قد تبدو أكثر تعقيداً عندما نفترض أن المصالح ما بين المستعمِر الاستيطاني والدولة الإمبريالية الأم لا تكون مشتركة في كل الحالات. فمثلا، يرى فيراسيني، أن الدولة الإمبريالية، في بعض الأحيان، تستخدم أجندات ضد مصالح المستوطنين (Veracini 2014, 628). بريطانيا تعتبر مثالاً على الدولة الإمبريالية التي سعت إلى احتضان مشاريع الاستعمار الاستيطاني، الأمر الذي أنتج تناقضاً في مصالحها تجاه المستعمرات: فمن جهة، كانت بحاجة إلى الإبقاء على السكان الأصلانيين والانتفاع من قوة عملهم الرخيصة، أو السوق الاستهلاكية التي يوفرونها؛ لكنها بالمقابل كانت تسعى أيضا إلى الانتفاع من علاقتها مع المستعمِر الاستيطاني الذي يعمل على إقامة دولة رأسمالية حليفة.

يقوم منطق الاستعمار الاستيطاني، على الوصول بأسرع وقت ممكن إلى الاعتماد الذاتي، والاستمرارية الذاتية، سواء في الاقتصاد، أو في التركيبة الديمغرافية. فمعنى الاستيطان الدائم، يتضمن إنشاء مجتمع متكامل من المستعمرين الاستيطانيين، والكف عن تلقي مساعدات خارجية من جهة، والانتهاء من طرد أو إزالة السكان الأصلانيين، من جهة أخرى. وطالما لم يتم بلوغ هذين الهدفين فإن الاستعمار الاستيطاني يعتبر نفسه مهدداً.

لكن هذا لم يمنع البعض الآخر من أن يرى أن العلاقة مع الدولة الإمبريالية الأم قد تكون في بعض الحالات دائمة. فمثلا، يرى ميتشيل (Thomas G. Mitchell) أن الاستعمار الاستيطاني قد يكون تابعاً لدولة أم (dependent)، و قد يكون مستقلاً عنها (independent). وهو يسوق مثالين (يعتبران نادرين) على الاستعمار الاستيطاني التابع: شمال ايرلندا والجزائر. ويشرح كيف أن ايرلندا

ما يهمنا هنا هو أن المستعمر الاستيطاني، بشكل عام، لا يصل إلى الأراضي ليكون مندوباً للدولة الأم الرأسمالية، وإنما ليُنشئ مجتمعه الرأسمالي الخاص به. أما علاقته بالدولة الأم فتكون نفعية ومؤقتة، وتتحول في مرحلة ما إلى معيقة بالنسبة لبناء مشروعه الاستيطاني. وبالنسبة للسكان الأصلانيين فإنهم يدخلون رغما عنهم في علاقة مع المستعمِر الاستيطاني، على أن هذه العلاقة لا تكون مبنية على الاستغلال الاقتصادي، كما هو الحال في الاستعمار الاستغلالي، وإنما هي علاقة من نوع آخر.

الشمالية تحولت إلى استعمار استيطاني مستقل، على الأقل فعليا وليس قانونياً، إبان حكم ستورمونت (Stormont) ما بين ١٩٢٠ و ١٩٧٢، قبل أن تعود لتصبح استعمارا استيطانياً تابعاً لبريطانيا، بحيث تتم صناعة القرار داخل الدولة الإمبريالية الأم وليس من قبل المستوطنين (Mitchell 2000, 3). لكن حتى في هاتين الحالتين الشاذتين، فإننا يجب أن نميز ما بين الاستعمار الاستيطاني باعتباره مشروعا تقوم به الدولة لتوسيع أراضيها الجغرافية (فرنسا أعلنت أن الجزائر هي جزء لا يتجزأ من أرض الجمهورية الفرنسية)، وبين الاستعمار الاستيطاني باعتباره مشروعا تقوم به جماعات تخرج من أوروبا لتقطع صلتها بها أثناء إنشاء مجتمعها الجديد، مثل الصهاينة (زريق ٢٠١١). في كل الأحوال، وبالرغم من أن الاستعمار الاستيطاني الايرلندي كان تابعاً لبريطانيا أثناء تأسيسه، إلا أن المستوطنين الجدد في ايرلندا يعتبرون أن دولة الاستعمار الاستيطاني التي شيدوها دولة لها كيانها الخاص، وإن كانت سياسيا ضمن الولايات المتحدة البريطانية.

ما يهمنا هنا هو أن المستعمر الاستيطاني، بشكل عام، لا يصل إلى الأراضي ليكون مندوباً للدولة الأم الرأسمالية، وإنما ليُنشئ مجتمعه الرأسمالي الخاص به. أما علاقته بالدولة الأم فتكون نفعية ومؤقتة، وتتحول في مرحلة ما إلى معيقة بالنسبة لبناء مشروعه الاستيطاني. وبالنسبة للسكان الأصلانيين فإنهم يدخلون رغما عنهم في علاقة مع المستعمِر الاستيطاني، على أن هذه العلاقة لا تكون مبنية على الاستغلال الاقتصادي، كما هو الحال في الاستعمار الاستغلالي، وإنما هي علاقة من نوع آخر. إن علاقة السكان الأصلانيين مع المستعمرين الاستيطانيين هي علاقة صراع (وبقاء) على الأرض. وقد لخص فيراسيني هذه العلاقة بقوله إن الاستعمار الاستيطاني يخلق ظروفا بحيث تتم ممارسة الفعل الاستعماري من داخل الكيان السياسي المستعمر استيطانيا، على العكس من الاستعمار الاستغلالي والذي يمارس الفعل الاستعماري من الخارج، من خلال متروبول منفصل جغرافيا واقتصاديا وسياديا عن المستعمَرة (Veracini 2010, 57).

الاستعمار الاستيطاني مشروع دائم

ولأن الهدف هو الأرض الفارغة من السكان الأصلانيين، فإن المستعمِر في حالة الاستعمار الاستيطاني يأتي ليبقى، ولا ينوي العودة إلى «الوطن»، وهدفه هو تحويل المستعمرة إلى «وطن جديد» وذلك على العكس من المستعمِر في حالة الاستعمار الاستغلالي، الذي يعلم مسبقاً أن تواجده على أراضي المستعمَرة هو مؤقت. (Veracini 2010, 6; Glenn 2015, 57).

ويحول وولف هذه السمة (الهجرة للاستيطان الدائم) إلى عبارة تحمل دلالات نظرية: فهو يقول «المستعمِرون جاؤوا ليبقوا– الغزو [في حالة الاستعمار الاستيطاني] هو بنية وليس حدثاً» (Wolfe 1999,). إن الاستعمار في حالة الاستعمار الاستغلالي يعتبر حدثاً، له بداية وله نهاية؛ والحدث يمكن أن تزول آثره ويمكن أن تستمر. فعندما يستذكر الباحثون ظاهرة الاستعمار الاستغلالي الكلاسيكي، فإنهم ينظرون إليه باعتباره حدثا وصل نهايته في فترة تفكك الاستعمار (decolonialism)؛ من جهة ثانية، هناك من ينظر إلى الاستعمار الاستغلالي على أنه حدثاً، لكن بالرغم من أن وجوده في المستعمرات قد انتهى فيزيقياً، إلا أن آثاره ما تزال حاضرة في وعي واقتصاد ومجتمع المستعمَرين سابقاً (postcolonialism)؛ ومن جهة ثالثة، هناك من يرى أن الاستعمار الاستغلالي انتقل من كونه حدثاً له طابع فيزيائي واضح، إلى حدث له طابع غير مباشر (Loomba 1998;) (neocolonialism Macqueen 2007; ferro 1997). في كل الأحوال، يستطيع المستعمَرون يستطيعون التخلص من المستعمِرين، وتقرير مصيرهم على أرضهم. فهذه إمكانية متاحة أمامهم.

واستطراداً على مفهوم البنية لدى وولف، فإن الاستعمار الاستيطاني يعيد إعادة انتاج الزمان والمكان ليصبحان من الآن فصاعدا ملكا للمستوطنين الجدد، وليس لحقبة ما قبل الاستعمار. لقد أوضحت هنيدة غانم، كيف أن المستعمِر الصهيوني قام بإعادة إنتاج المكان (فلسطين) من خلال تحويل الأسماء، والرموز، والذكريات، والروايات التاريخية لتصبح منتمية إلى روايته.

في المقابل، لا يمكن الحديث عن ما بعد الاستعمار الاستيطاني (settler postcolonialism)، أو عن تفكك الاستعمار الاستيطاني (settler decolonialism)، أو الاستعمار الاستيطاني الجديد (settler neocolonialism). فالاستعمار الاستيطاني، منذ بدايته كان، كبنية، يقوم على إعادة انتاج الإنسان المستعمِر، باستمرار، ليصبح إنسانا أصلانيا (settler indigenization)؛ ومن جهة ثانية، كان يقوم على إعادة انتاج الانسان المستعمَر لكي يكف عن كونه مستعمَراً ويزول، أو يختفي، أو يتم طرده (native elemination). هنا فقط يمكن أن نفسر عبارة جيمس بليخ: «الذي تمدد واستمر باقياً في تاريخ التوسعات الأوروبية إنما هو الاستيطان، وليس الاستعمار [الاستغلالي]» (Blich, 2009, 21-23).

ويقترح فيراسيني على الباحثين بلورة حقل دراسي للكشف عن معنى تفكك الاستعمار الاستيطاني. فهو يرى أن الاستعمار الاستغلالي يقوم على علاقة الخارج (المركز الإمبريالي) بالداخل (المجتمع المستعمَر)، وبالتالي فإن مفهوم تفكك الاستعمار في هذه الحالة (وارتباطه بمفهوم التحرر الوطني) يعني قطع هذه العلاقة، وإعادة القرار بتقرير مصير المجتمع المستعمَر من الخارج إلى الداخل. لكن في حالة الاستعمار الاستيطاني فإن فعل الاستعمار تتم ممارسته ليس من الخارج، وإنما من الداخل. فالبنية التي تحدث عنها وولف تعني أن المستوطن الاستعماري يعمل على إلغاء صفة الاستعمار عن نفسه من خلال التحول من مستعمِر (والتي قد تعني أنه خارجي وغريب تجاه المكان) إلى أصلاني (والتي تعني أنه صاحب المكان). في المقابل، فإن المستعمِر الاستيطاني يعمل على تحويل المستعمَر (السكان الأصلانيين) من صاحب الأرض إلى إنسان غريب عنها، أو إنسان عابر. بكلمات أخرى، فإن منطق الاستعمار الاستيطاني يقوم على إلغاء العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، عبر إعادة إنتاج كل طرف.

في حالة الاستعمار الاستيطاني، إذن، تكون المعادلة كالتالي: كلما طالت علاقة المستعمِر بالمستعمَر، فإن هذا يشكل مؤشراً لفشل الاستعمار الاستيطاني. وعندما تزول العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر فإن هذا يعتبر نجاحا للمشروع الاستعمار الاستيطاني، حيث يكفّ عن كونه استعمارا استيطانيا، ويتحول إلى مجتمع طبيعي. ويرى فيراسيني، أنه من وجه نظر المستعمَرين، يعني تفكك/انهاء الاستعمار الاستغلالي إنهاء علاقة المستعمِر بالمستعمَر؛ أما تفكك/انهاء الاستعمار الاستيطاني فيعني إبقاء العلاقة حية قدر المستطاع (Veracini 2011, 5-8).

واستطراداً على مفهوم البنية لدى وولف، فإن الاستعمار الاستيطاني يعيد إعادة انتاج الزمان والمكان ليصبحان من الآن فصاعدا ملكا للمستوطنين الجدد، وليس لحقبة ما قبل الاستعمار. لقد أوضحت هنيدة غانم، كيف أن المستعمِر الصهيوني قام بإعادة إنتاج المكان (فلسطين) من خلال تحويل الأسماء، والرموز، والذكريات، والروايات التاريخية لتصبح منتمية إلى روايته. وترى غانم أن الإزالة والمحو في الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، شأنها شأن باقي الاستعمارات الاستيطانية، تعتبر أفعالا شمولية «لا يراد منها إبعاد الأصلانيين وحسب... بل أيضا إبعاد اسمهم وذكرهم من الفضاء الزمكاني، واستعمار تاريخ المكان وفضائه وأسمائه (غانم ٢٠١٣، ١٢٠). فمعظم مشاريع الاستعمار الاستيطاني ادّعت وجود رسالة تاريخية، أو مهمة دينية، في تحرير الأرض وتطهيرها من السكان الأصلانيين، وذلك عبر إعادة إنتاج الزمان (كتب المستكشف الفرنسي جوزيف ديجيرانغو عن السكان الأصلانيين، أثناء اكتشافه تسمانيا، كيف أن الاكتشاف لا يعني الانتقال في المكان وإنما أيضا الانتقال عبر الزمان لإعادة صياغة الروايات) (Mansour 2011, 149)؛ وإعادة إنتاج المكان (كابتين كوك لم يطلق اسم نيو أيلاند لأنه اكتشف الجزيرة، وانما

لكن في الاستعمار الاستيطاني، يقوم المستعمِر بتوظيف خطابات عنصرية إقصائية، وليس استعلائية. فالمستعمِر في هذه الحالة يعمل على عدم إعادة إنتاج العلاقة بينه وبين السكان الأصلانيين الذين يجب أن يزولوا. لذا، فإن خطاباته تقوم على ثنائية الإنا-الآخر اللذين لا يقعان، كما هو الحال في الاستعمار الاستغلالي، على محور عامودي، بحيث أن التحضّر والتطور التدريجي لـ«آخر» المستعمَر قد يصل به إلى مكانة «الأنا» المستعمِرة. تعتبر ثنائية الأنا- الآخر في الاستعمار الاستيطاني أفقية. إنهما كيانان لا يلتقيان ، ولو حتى نظرياً.

لأنها لم تكن مرسومة في السابق على الخرائط؛ إن وضعها على الخارطة كان يعني إخراجها من العدم إلى حيز الوجود) (Wolfe 1997, 409-410)؛ وإعادة إنتاج الأسماء (قام الصهيونيين بتغيير أسماء المدن والقرى والبحار والبحيرات والجبال والآثار من أسماء عربية إلى أسماء عبرية يهودية توراتية) (غانم ٢٠١٣). ولأن المواجهة تكون استثنائية بين المستعمِر الذي يأتي ليبقى، وبين السكان الأصلانيين الذين يجب أن يزولوا لكي لا يبقوا، فإن السياق الاستعماري الاستيطاني يكون مثقلا بالخطابات العنصرية التي تعتبر جزءا بنيويا من المشروع الاستعماري.

الاستعمار الاستيطاني يستند إلى خطابات إقصائية

تعتبر الخطابات المستخدمة في السياق الاستعماري الاستغلالي عنصرية، لكنها تفترض التعايش بين المستعمِر والمستعمَر على قاعدة التفوقية (superiority). فالمستعمِر يعمل باستمرار على إعادة إنتاج ثنائية الحداثي– البربري (Modern-Barbarian)، عبر تطوير خطابات عنصرية تفوقية ليحافظ على ديمومة العلاقة مع المستعمَر، بينما أن الأخير يعمل على قطع العلاقة عبر تقويض رواية المستعمِر (Loomba 1998).

لكن في الاستعمار الاستيطاني، يقوم المستعمِر بتوظيف خطابات عنصرية إقصائية، وليس استعلائية. فالمستعمِر في هذه الحالة يعمل على عدم إعادة إنتاج العلاقة بينه وبين السكان الأصلانيين الذين يجب أن يزولوا. لذا، فإن خطاباته تقوم على ثنائية الإنا–الآخر اللذين لا يقعان، كما هو الحال في الاستعمار الاستغلالي، على محور عامودي، بحيث أن التحضّر والتطور التدريجي لـ «آخر» المستعمَر قد يصل به إلى مكانة «الأنا» المستعمِرة. تعتبر ثنائية الأنا– الآخر في الاستعمار الاستيطاني أفقية. إنهما كيانان لا يلتقيان ، ولو حتى نظرياً (Bateman and Pilkington 2011).

وحتى نضع الخطابات العنصرية الإقصائية في سياقها التاريخي، ونحللها من منظور سوسيولوجي، يجب ربط الخطابات العنصرية مع التركيبة السكانية لمجتمع الاستعمار الاستيطاني، وموقع كل عنصر من عناصر هذه التركيبة داخل بنية الاستعمار (الاقتصادية والاجتماعية). ولئن أشار هرتسل إلى أنه «إذا أراد المرء أن يستبدل بناء جديداً بآخر قديم، فيتوجب عليه أن يهدم قبل أن يبني»، فإن وولف قد استخلص أن «الموت الاجتماعي للسكان الأصلانيين يعني ولادة المستعمِر الاستيطاني» (Wolfe 2011, 273). لذا، يتم في سياق الاستعمار الاستيطاني، ترميز هذه العلاقة القائمة على الإزالة والاستبدال، من خلال تفعيل خطاب إقصائي يظهر فيه المستوطنون على أنهم جماعة صاعدة وواعدة، بينما أن السكان الأصلانيين يبدون مجتمعاً في طريقه إلى الزوال والاندثار. واستناداً إلى دعوة وولف بالبحث عن الأساس المادي والاجتماعي لظهور الخطابات الاقصائية، فإن الترميز قد يختلف من سياق إلى آخر (Wolfe 2011, 274). ففي الاستعمار الاستيطاني لأميركا، تأسس الخطاب الإقصائي على مقولة العرق (race)، بينما تأسس في فلسطين على مقولة الديانة. وهذه الاختلافات على المستوى الخطابي، لها تبعات لا يمكن تجاهلها، على مستقبل العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، وعلى امكانيات القيام بفعل الإزالة الاجتماعية لكتلة السكان الأصلانيين عبر دمجهم، واستيعابهم.

وهنا، تظهر قوة الخطاب الاستعماري الاستيطاني وتشعباته. ففي أميركا الشمالية تم ترميز المستوطنين الجدد، والعبيد الأفارقة، والسكان الأصلانيين بناء على مقولات عرقية هي البيض، والسود والحمر. وبينما كان الخطاب تجاه السود استعلائيا، بدا العرق

الأحمر كعرق آفل (Vanishing race) (Hoxsin 2013, 81; Wolfe 2001, 866)، ومُرمز وفق خطاب إقصائي. ففي النهاية، ما يجمع الأبيض والأسود هي علاقة استغلال لقوة العمل (مفردات الخطاب تنتمي إلى حقل الاستعمار الاستغلالي)، بينما أن علاقة الأبيض مع الأحمر هي علاقة وجود على الأرض (مفردات الخطاب تنتمي إلى حقل الاستعمار الاستيطاني). الحالة في الاستعمار الاستيطاني الصهيوني مماثلة من حيث الجوهر، مع أنها تختلف في الشكل وأدوات الترميز. فالعلاقة بين الصهيوني المستوطن والفلسطيني الأصلاني تم ترميزها في خطاب ديني (يهودي–عربي)، على أن العلاقة بينها هي علاقة وجودية تتمحور حول الأرض. لكن العلاقة بين الصهيوني الاشكنازي الأوروبي الأبيض واليهودي الشرقي (وفي أحيان كثيرة العربي) تم ترميزها باستخدام خطاب استعلائي (وليس إقصائيا) يقوم على التفوق الحضاري (في حالة يهود اليمن) أو العرقي (في حالة اليهود الاثيوبيين)، لأن جوهر العلاقة هو العمل. إن الحاجة إلى إعادة إنتاج العلاقة القائمة على استغلال العمل، بين اليهودي الاشكنازي واليهودي المزراحي، هي التي تدفع المستعمِرين الأوروبيين في حالة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني إلى قبول تكوينات بشرية جديدة (يعتبرونها أدنى منهم كما هو الحال في الخطاب الاستعماري) بداخلهم، على أساس اللامساواة (Wolfe 2001, 904).

فالخطاب العنصري المستخدم في سياق الاستعمار الاستيطاني يحدد من يستطيع أن ينتقل من طرف إلى آخر (اليهودي الشرقي يستطيع أن يتطور إلى يهودي حداثي أوروبي الثقافة)، ومن لا يمكنه أن ينتقل (السكان الأصلانيون غير اليهود لا يمكن أن يصبحوا يهوداً أوروبيين أو على الأقل يهوداً). تجد الخطابات المستخدمة في كل سياق استعماري استيطاني تبريرها السوسيولوجي في طبيعة العلاقة المادية بين أطرافها داخل بنية المجتمع الاستعماري الاستيطاني.

الاستعمار الاستيطاني مشروع رأسمالي متطور بالضرورة

في العام ١٩٨٣، لاحظ دونالد دينون (Donald Denoon)[٥] أن الدول الاستعمار الاستيطاني هي دول رأسمالية متطورة، وقد كانت الولايات المتحدة هي المثال الأهم الماثل أمامه. وبعد أن استخدم مفهوم «الرأسمالية الاستيطانية» (Settler capitalism)، قام بدراسة حالات أخرى (أهمها، الأرجنتين، جنوب افريقيا، نيوزيلاند) ليبين لماذا لم تحاكي الرأسمالية الاستيطانية فيها تجربة الولايات المتحدة القوية والمزدهرة.

وارتباطا بالسمتين الثانية والثالثة، حيث العلاقة مع المركز الإمبريالي تكون مؤقتة، وحيث الاستعمار الاستيطاني يؤسس نفسه كمشروع دائم على الأرض، فان اقتصاديات دول الاستعمار الاستيطاني تتطور بشكل مختلف عن الدول الرأسمالية الأوروبية المتقدمة من جهة، وبشكل مختلف أيضا عن دول الجنوب التابعة.

لقد قام العديد من المختصين بدراسة تطور الرأسمالية على الصعيد العالمي، وكانوا يرتكزون إلى علاقة الدولة الرأسمالية الإمبريالية مع المستعمَرات التابعة، بحيث أن المستعمرات(وهنا الإشارة إلى الاستعمار الاستغلالي)، خضعت لعلاقات رأس المال الأوروبي، فتم احتجاز تطورها، وسرقة فائضها الاقتصادي (Macqueen 2007, 141-143). لكن الأهم، أن المستعمرات أثناء فترة الاستعمار الاستغلالي، ولاحقاً أثناء فترة الاستعمار الجديد (neocolonialism)، عجزت عن تطوير أنماط إنتاج رأسمالية متطورة ومستقلة، وعجزت عن تطوير صناعة متطورة، وكانت تبادلاتها التجارية مع الخارج بشكل عام، والمركز الإمبريالي بشكل خاص خاضعة لعلاقة التبعية. وهذا أدى إلى عجز المستعمرات المستغلة اقتصاديا، عن نفي أنماط الإنتاج الما قبل رأسمالية، وأشكال الحياة القديمة، كالثقافة والعلاقات الاجتماعية، والتي ظلت تعيد إنتاج نفسها داخل التشكيلة الاجتماعية للمستعمرة التابعة للمتروبول (Wolfe 1997, 398). لكن الأمر مختلف في المستعمرات الاستيطانية.

يبدأ الاستعمار الاستيطاني بإزالة السكان الأصلانيين. وهو في الواقع إنما يزيل أنماط إنتاجهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، ومؤسساتهم السياسية، ليحصل على الأرض «الخالية». يكمن الاختلاف البنيوي ما بين الاستعمار الاستغلالي والاستعمار الاستيطاني، في أن الأول يعمل على الاستحواذ على الأرض والسكان الأصلانيين بهدف استغلالهم، بيد أن الثاني يعمل على الاستحواذ وحسب: إنه يدمر كل أنماط الحياة السابقة، ويعمل على إزالة الأصلانيين (Veracini 2015, 94). وقد بين فولي (Tadhg Foley) كيف أن الاستعمار الاستيطاني كان يعتبر، في أعين مؤرخي القرن التاسع عشر الذين عايشوا ازدهار الاقتصاد الرأسمالي الأميركي من جهة، وولادة مشاريع استعمار استيطاني جديدة من جهة أخرى، على أنه مشروع استثماري رأسمالي يحاكي الرأسمالية الأوروبية الصاعدة: فإنجلترا نفسها–كتب أحد المؤرخين في القرن التاسع عشر– تم نقلها إلى الطرف الآخر من العالم، وهذا شمل ليس فقط ثقافتها وعاداتها، وإنما أيضا علاقات الإنتاج الرأسمالية (Foley 2011,10-28). فالأصلانيون في أميركا الشمالية، جُردوا من علاقتهم بالأرض،

وفي السياق نفسه أيضا، قامت مشاريع الاستعمار الاستيطاني في افريقيا، والتي كانت حسب فيلدهاوس وأوسترهامل، تحتاج إلى قوة عمل السكان الأصلانيين كحالة استثنائية، قامت بالإبقاء على أنماط الإنتاج الافريقية الما قبل رأسمالية لكنها ربطتها بنمط الإنتاج الرأسمالي للمستوطنين الجدد، لكي تعمل على خدمته. ففي النهاية، تعتبر تشكيلة الاستعمار الاستيطاني مركزاً رأسمالياً بالنسبة لأنماط الإنتاج الأصلانية التابعة لها في حال كانت الإزالة اجتماعية وليس جسدية. فالمركز والتابع يتعايشان على نفس الوحدة الجغرافية في تشكيلة الاستعمار الاستيطاني (الاستعمار الاستيطاني بنية وليس حدثا)

وتم تدمير أنماطهم الإنتاجية، ولكن وهذا الأهم، اعتبروا غير مؤهلين ليشكلوا قوة عمل رخيصة داخل التشكيلة الاستعمارية الاستيطانية الجديدة، التي قامت على أساس علاقات الإنتاج الرأسمالية. فمشروع الاستعمار الاستيطاني الأميركي يعتبر هدما لبنية اجتماعية اقتصادية أصلانية، وفي الوقت نفسه تشييدا لبينة اجتماعية اقتصادية رأسمالية.

وفي السياق نفسه أيضا، قامت مشاريع الاستعمار الاستيطاني في افريقيا، والتي كانت حسب فيلدهاوس وأوسترهامل، تحتاج إلى قوة عمل السكان الأصلانيين كحالة استثنائية، قامت بالإبقاء على أنماط الإنتاج الافريقية الما قبل رأسمالية لكنها ربطتها بنمط الإنتاج الرأسمالي للمستوطنين الجدد، لكي تعمل على خدمته. ففي النهاية، تعتبر تشكيلة الاستعمار الاستيطاني مركزاً رأسمالياً بالنسبة لأنماط الإنتاج الأصلانية التابعة لها في حال كانت الإزالة اجتماعية وليس جسدية. فالمركز والتابع يتعايشان على نفس الوحدة الجغرافية في تشكيلة الاستعمار الاستيطاني (الاستعمار الاستيطاني بنية وليس حدثا) (Silverstien 2011). أما شافير (Gershon Shafir) فيوضح كيف أن نشوء مشروع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فترة الييشوف المبكر(خاصة ما بين ١٩٠٤ و ١٩١٤)، كان يعني بناء التشكيلة الرأسمالية الصهيونية، التي لا مكان فيها للأصلانيين، وأنماط إنتاجهم (Shafir 1996).

إن المهاجرين الذين خرجوا من أوروبا الرأسمالية في فترات مختلفة، وبناء على ظروف مختلفة، لا يبحثون عن مكان جديد يكون تابعاً ومستعمَراً، أو مستغلاً اقتصادياً من قبل الإمبريالية الأوروبية؛ كما أنهم لا يبحثون في المقابل عن مكان فقير وتسوده أنماط إنتاجية ما قبل رأسمالية. بل إن هدفهم النهائي تطوير أنماط حياة أفضل تقوم على الرخاء (Shafir 1996, 40). فمثلا، ضمت الهجرة الصهيونية الأولى (١٨٨٢– ١٩٠٤) حوالي ٣٢ ألف مستعمر استيطاني، بقي منهم في فلسطين بضع مئات، حيث عاد المعظم أدراجه يبحث عن نمط حياة لم يجده في فلسطين بسبب عدم قدرة أبناء هذه الموجة على بناء نمط الإنتاج الرأسمالي وفق شروط فلسطين وظروفها الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الوقت (Shafir 1996). فعلى دولة الاستعمار الاستيطاني أن تشكل بيئة جاذبة للمهاجرين المستوطنين، ومكانا ملائما للاستثمار والتطور، وإلا فإن الاستيطان سيتحول إلى مشروع فاشل.

الهندسة الاجتماعية الدقيقة

يحاجج فيراسيني، بأن مجتمع الاستعمار الاستيطاني يقوم على تركيبة سكانية تضم، بشكل عام، ثلاث كتل اجتماعية رئيسية: المستعمرون المستوطنون، والسكان الأصلانيون، والتشكيلة من السكان البرانيين (exogenous) المستقدمين لغايات اقتصادية. والكتلة الأخيرة تضم أفرادا وجماعات من خارج الكتلة الأصلية للسكان الأصلانيين، ينتظرون انضمامهم اجتماعيا وثقافيا إلى كتلة المستوطنين أثناء مساهمتهم في بناء مجتمع الاستعمار الاستيطاني، وتوفيرهم أيد عاملة رخيصة. تكون هذه التقسيمات، التي قد تختلف من سياق استعمار استيطاني إلى آخر، دقيقة جدا، وخاضعة لمعايير محكمة يضعها المستعمر الاستيطاني. فحتى لو أن هناك كتلا اجتماعية أخرى إلى جانب المستعمر الاستيطاني، فإن هذا لا يجعلها قادرة بسهولة على التأثير على الطابع الاجتماعي لدولة الاستعمار الاستيطاني: يحوّل المستعمر الاستيطاني كتلته الاجتماعية إلى الكتلة المعيارية (normative) (Veracini 2011, 18).

وتمتد الهندسة الاجتماعية في الاستعمار الاستيطاني، عبر الزمان والمكان لتطال بدقتها أفرادا وجماعات أخرى على صلة بالمشروع الاستعماري. فمع أن اسرائيل تعتبر نفسها دولة اليهود، إلا أن الحدود المعيارية لكتلة المستوطنين لا تساوي بين اليهودي والصهيوني، كما أن الصهيوني الذي تحمل المشقة و «صعد» إلى «إرتس تسرائيل» لا يمكن أن يتساوى مع الصهيوني الذي يدعم إسرائيل لكنه آثر البقاء في منهاتن. في السياق نفسه لا يتساوى الفرنسي مع «ذوي الأرجل السوداء» (Pier noir) الذين هاجروا مع عائلاتهم إلى الأرض الجديدة (الجزائر) لاستعمارها. كذلك، فإن «الآباء المؤسسين» الذين كانوا الرواد الأوائل في بناء مشروع الاستعمار الاستيطاني لا يتساوون مع الأجيال اللاحقة من حيث المكانة الاجتماعية داخل كتلة المستوطنين.

بداية، تقوم الهندسة الاجتماعية في تشكيلة الاستعمار الاستيطاني على شروع المستعمِرين، أثناء الاستحواذ على الأرض وإزالة السكان الأصلانيين، ببناء أنفسهم كجماعة اجتماعية ذات هوية واحدة ومتماسكة. فمبدأ الاستثنائية الأميركية (American exceptionalism) يقوم على تجاوز الهويات المبعثرة للمستوطنين ذوي الأصول الألمانية، والبريطانية، والفرنسية، والصينية.. الخ.، وصهرها في بوتقة واحدة (Hixson 2013, 12; 21). وعادة ما يأتي المستعمرون الاستيطانيون من دول وقوميات مختلفة، ليوحدهم مستقبل الدولة الاستعمارية. فتاريخ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني يقوم منذ بدايته، وحتى اليوم الحاضر، على مبدأ صناعة الهوية الإسرائيلية العبرية الفريدة: ابتداء من إيهود بن أليعازر، مؤسسة اللغة العبرية الحديثة، الذي رفع شعار «عام أحد، سافاه أحت» (شعب واحد، لغة واحدة]، وصولا إلى مؤسسة الجيش الاسرائيلي التي تعتبر «كور حيتوخ» (بوتقة صهر)، ومروراً بالكيبوتس، كانت كتلة المستوطنين باستمرار تحاول تحديد معالمها باعتبارها كتلة متماسكة، فريدة. لكنها في الحقيقة كانت، وإلى جانب إعادة إنتاج نفسها كصاحبة هوية متماسكة، تقوم بإعادة إنتاج الآخرين باعتبارهم خارج كتلتها الاجتماعية.

وتمتد الهندسة الاجتماعية في الاستعمار الاستيطاني، عبر الزمان والمكان لتطال بدقتها أفرادا وجماعات أخرى على صلة بالمشروع الاستعماري. فمع أن اسرائيل تعتبر نفسها دولة اليهود، إلا أن الحدود المعيارية لكتلة المستوطنين لا تساوي بين اليهودي والصهيوني، كما أن الصهيوني الذي تحمل المشقة و«صعد» إلى «إرتس تسرائيل» لا يمكن أن يتساوى مع الصهيوني الذي يدعم إسرائيل لكنه آثر البقاء في منهاتن. في السياق نفسه لا يتساوى الفرنسي مع «ذوي الأرجل السوداء» (Pier noir) الذين هاجروا مع عائلاتهم إلى الأرض الجديدة (الجزائر) لاستعمارها. كذلك، فإن «الآباء المؤسسين» الذين كانوا الرواد الأوائل في بناء مشروع الاستعمار الاستيطاني لا يتساوون مع الأجيال اللاحقة من حيث المكانة الاجتماعية داخل كتلة المستوطنين. وكل مشروع استعمار استيطاني يعيد باستمرار إنتاج صورة الآباء المؤسسين لتساهم في كل لحظة في إنتاج الهوية المتماسكة لمجتمع المستوطنين. في أميركا الشمالية، يحظى الـ WASP (البروتستانت البيض الانغلو-ساكسونيين) بمكانة مرموقة داخل مجتمع المستوطنين الأميركان، تمامًا كما يحظى أبناء الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤) بمكانة استثنائية في الذاكرة الجمعية الصهيونية.

بيد أن الهندسة الاجتماعية في سياق الاستعمار الاستيطاني تبرز أكثر عند الحديث عن «الآخرين» الذين لا ينتمون إلى مجتمع المستوطنين (لكنهم في انتظار انصهارهم)، أو «الآخرين» الذين لا يمكن أن ينتموا إلى مجتمع المستوطنين (ويُنتظر منهم الزوال). إن استخدام مصطلح «الآخرين» في كلا الحالتين يعني أن هذه الكتل الاجتماعية، بغض النظر عن حقيقة ارتباطها بالمكان والزمان، يتم تحديد معالمها ومصيرها بناء على كتلة المستعمر الاستيطاني المعيارية.

إن «الآخرين» الذين ينتظرون الانضمام إلى مجتمع المستوطنين الجدد، يشكلون جزءاً بنيويا داخل تشكيلة الاستعمار الاستيطاني في كثير من الحالات. فهم لا ينتمون إلى كتلة المستعمرين المستوطنين، لكنهم لا ينتمون أيضا إلى كتلة الأصلانيين. إن الهندسة الاجتماعية والحدود المعيارية التي ترسمها كتلة المستعمرين الاستيطانيين، تصنفهم، أولا، كـ «آخرين» يمكن

في كل الأحوال، وبينما تقوم ممارسة السيادة في حالة الاستعمار الاستغلالي على مبدأ «إدارة» كتلة السكان الأصلانيين، فإن ممارسة السيادة في حالة الاستعمار الاستيطاني تقوم على مبدأ «الإزالة» (الفورية أو التدريجية؛ الجسدية أو الثقافية؛ الجزئية أو الكلية). وقد تختلف الهندسة الاجتماعية التي يمارسها المستعمرون الاستيطانيون تجاه كتل «الآخرين» الاجتماعية عبر الزمان والمكان. ففي المشروع الاستعماري الصهيوني، وبعد أن مارس المستوطنين مبدأ الإزالة تجاه الفلسطينيين قبل وأثناء العام ١٩٤٨، عبر رفع شعارات «أرض بلا شعب» أو «احتلال العمل»، وصولا إلى التطهير العرقي ١٩٤٧-١٩٤٨، نجدهم بعد العام ١٩٦٧ انتقلوا إلى ممارسة مبدأ الإدارة تجاه الفلسطينيين.

التعايش معهم داخل نفس التشكيلة الاجتماعية، لكنهم يعتبرون من نوعا آخر غير نوع المستعمِر الاستيطاني. والهندسة الاجتماعية تعيد إنتاجهم كآخرين باستمرار مع الحفاظ على الخط الفاصل بينهم وبين المستوطنين، تماماً كما حصل مع الأفارقة المستوردين للعمل في مزارع القطن والسكر والتبغ في أميركا الشمالية. وفي حالات أخرى يتم تصنيفهم كـ «آخرين» ينتمون إلى كتلة المستعمرين المستوطنين لكن مع وقف التنفيذ . فالانتماء الفعلي لليهود اليمنيين الذين تم استدعاؤهم بعد العام ١٩٤٨ ، كان مؤجلاً إلى حين استيفائهم للمعايير الاجتماعية والثقافية النقية للمستوطنين. في كلا الأحوال، فإن رسم الحدود بين المستوطنين وهذا النوع من «الآخرين» مطلوب لإعادة إنتاج كتلة الآخرين التي توفر الأيدي العاملة الرخيصة. هؤلاء «الآخرون» إما أنهم يقبلون المساهمة في اقتصاد المستعمرة الاستيطانية لأنها توفر لهم شروط حياة أفضل من المجتمع الذي خرجوا منه (في حالة اليهود اليمنيين، أو الهنود في كينيا)، وإما أنهم يُرغمون على العمل (في حالة الأفارقة العبيد في أميركا الشمالية، أو السجناء في أستراليا)، لكن في كلا الحالتين لن يشكل دمجهم في البنية الاقتصادية تهديدا وجوديا لمجتمع المستعمرين الاستيطانيين لأنهم لا يرفعون ادعاءات حول أحقيتهم بالأرض، كما يفعل السكان الأصلانيون الذين هم «آخرون» من نوع مختلف.

أخيرا، فإن كتلة السكان الأصلانيين هي الأهم في الهندسة الاجتماعية للاستعمار الاستيطاني. فالحدود المعيارية التي يرسمها المستعمر الاستيطاني، والتي تحدد من باستطاعته العبور والانضمام، تكون مغلقة أمامهم. ويبين فيراسيني أن إزالة السكان الأصلانيين، وفي بعض الأحيان إزالة «الآخرين» الذين ليسوا أصلانيين، هو إجراء ملازم لبنية أي استعمار استيطاني. وبالرغم من أن فيراسيني يوافق على أطروحة نور مصالحة حول الترحيل/ الترانسفير (Transfer) في السياق الفلسطيني، إلا أنه ينتقد محدودية المصطلح الذي يستبدله بمصطلح الإزالة (Removal). ومع ذلك فهو يستخدم مفهوم الترانسفير ويتناول أشكاله المتعددة التي رافقت مشاريع الاستعمار الاستيطاني عبر التاريخ الحديث، أهمها: الترانسفير القائم على القتل، والترانسفير الاثني، وترانسفير الاقتلاع المفاهيمي عندما يُنظر إلى الأصلاني باعتباره دخيلا إلى الأرض وليس صاحبها، والترانسفير الحضاري، والترانسفير عبر الاستيعاب داخل مجتمع المستوطنين كما حصل مع ذرية من تبقى من الأصلانيين في استراليا، وترانسفيرات أخرى تقوم على مستوى الخطاب والثقافة والوعي (Veracini 2011, 35- 52).

في كل الأحوال، وبينما تقوم ممارسة السيادة في حالة الاستعمار الاستغلالي على مبدأ «إدارة» كتلة السكان الأصلانيين، فإن ممارسة السيادة في حالة الاستعمار الاستيطاني تقوم على مبدأ «الإزالة» (الفورية أو التدريجية؛ الجسدية أو الثقافية؛ الجزئية أو الكلية). وقد تختلف الهندسة الاجتماعية التي يمارسها المستعمرون الاستيطانيون تجاه كتل «الآخرين» الاجتماعية عبر الزمان والمكان. ففي المشروع الاستعماري الصهيوني، وبعد أن مارس المستوطنين مبدأ الإزالة تجاه الفلسطينيين قبل وأثناء العام ١٩٤٨ ، عبر رفع شعارات «أرض بلا شعب» أو «احتلال العمل»، وصولا إلى التطهير العرقي ١٩٤٧–١٩٤٨ ، نجدهم بعد العام ١٩٦٧ انتقلوا إلى ممارسة مبدأ الإدارة تجاه الفلسطينيين، عبر السماح لهم بالعمل كأيد عاملة رخيصة، دون أن يعني ذلك أن مبدأ الإزالة

قد زال (Lolyd 2012, 67). تعتبر هذه الهندسة الاجتماعية، التي تحول الكتل الاجتماعية المختلفة في داخل تشكيلة الاستعمار الاستيطاني إلى طوبولوجيا، أو طبقات تفصلها حدود واضحة ودقيقة، من أهم سمات الاستعمار الاستيطاني التي تميزه عن الاستعمار الاستغلالي.

أخيراً، وفيما يخص إغناء الدراسات حول الاستعمار الاستيطاني، فإن المشروع الصهيوني يعتبر بقرة حلوبا. فكما أنه شكل بوتقة صهر للمستوطنين الصهاينة متعددي القوميات، فإنه أيضاً شكل بوتقة صهر لكل تجارب الاستعمار الاستيطاني السابقة، وأعاد إنتاجها بشكل أكثر فظاظة. إن حقل الاستعمار الاستيطاني لا يزال ينتظر المساهمات الجدية لقراءة المشروع الاستعماري الصهيوني،[٦] ومكانة وأوضاع الفلسطينيين التي تختلف عبر الزمان والمكان داخل تشكيلته.

الهوامش

١ كان هناك أعمال تناولت فلسطين، أهمها ما كتبه فائز الصايغ؛ وماكسيم رودنسون؛ وجميل هلال. لكنها كانت وصفية أكثر منها تحليلية فيما يخص علاقة المستعمر الصهيوني بالفلسطيني الأصلاني. حول تطور الاستعمار الاستيطاني من مفهوم وصفي إلى إطار نظري، انظر (Veracici 2013)

٢ لقد تعرض الفلسطينيون، وعلى مدار أكثر من مئة عام من عمر المشروع الاستعماري الصهيوني، إلى أشكال مختلفة من الممارسات. عبر الزمان (قبل عام ١٩٤٨، ١٩٤٨–١٩٦٧، ١٩٦٧– ١٩٩١، بعد العام ١٩٩١)، لكن أيضا عبر المكان (الداخل المحتل، الضفة الغربية والقطاع، مناطق السلطة الفلسطينية، الشتات) كانت تختلف أوضاع الفلسطينيين تحت الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، لكن القاسم المشترك فيما بينها كان خضوعها لمنطق الاستعمار الاستيطاني.

٣ لمراجعة أهم الاعمال التأسيسية، أنظر العدد الاول من مجلة Settler Colonial Studies ، أو مدونة الاستعمار الاستيطاني على الرابط التالي: https://settlercolonialstudies.org

٤ لدراسة تفصيلية عن سياسات الاستيعاب والتزاوج بين الأعراق، في سياق الاستعمار الاستيطاني، انظر (Wolf 2001).

٥ انظر كتابه حول «الرأسمالية الاستيطانية» الصادر عام ١٩٨٣. في نفس السياق، عالج البعض «نمط الإنتاج الاستيطاني» من خلال ربطه بالرأسمالية على الصعيد العالمي، انظر مثلا (Biermann and Kössler 1980).

٦

المراجع

زريق، رائف (٢٠١١). «إسرائيل: خلفية أيديولوجية وتاريخية» في كميل منصور وآخرون. **دليل إسرائيل العام ٢٠١١. مؤسسة الدراسات الفلسطينية:** بيروت. ص. ٣–٨٥.

غانم، هنيدة (٢٠١٣). «المحو والإنشاء في المشروع الاستعماري الصهيوني» في **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد ٩٦: ١١٨– ١٣٩.

Bateman F. and Pilkingto, L. (2011). "introduction" in Fiona Bateman and Lionel Pilkington (ed.) *Studies in Settler Colonialism Politics, Identity and Culture*. Palgrave Macmillan: NewYork

Belich, J. (2009). *Replenishing The Earth: The Settler Revolution And The Rise Of The Anglo-Word, 1783–1939*. Oxford Univeristy Press: Oxford.

Biermann, W. and Kössler, R. (1980). "The Settler Mode Of Production" in *Review of African Political Economy* 18 (special issue): 106- 116.

Cavanagh,E. (2017). "Settler colonialism in South Africa Land, labour and transformation, 1880–2015"in Edward Cavanagh and Lorenzo Veracini(ed.), *The Routledge Handbook of The History Of Settler Colonialism*. Routledge: London. 291- 311.

Elkins C.and Pedersen, S. (2005) *Settler Colonialism in the Twentieth Century: Projects, Practices, Legacies*. New York: Routledge

Foley, T. (2011). "'An Unknown and Feeble Body': How Settler 10 Colonialism Was Theorized in the Nineteenth Century" in Fiona Bateman and Lionel Pilkington (ed.) *Studies in*

Wolfe, P. (1997). " History and Imperialism: A Century of Theory, from Marx to Postcolonialism" in *The American Historical Review* 102(2): 388-420.

— (1999). *Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology: The Politics and Poetics of an Ethnographic Event*. Cassell: London.

— (2001). "Land, Labor, and Difference: Elementary Structures of Race" in *The American Historical Review* 106 (3): 866-905.

— (2006). "Settler colonialism and the elimination of the native" in *Journal of Genocide research* 8 (4): 387–409.

— (2011). "Race and the Trace of History: For Henry Reynolds" in Fiona Bateman and Lionel Pilkington (ed.) *Studies in Settler Colonialism Politics, Identity and Culture*. Palgrave Macmillan: NewYork.

Settler Colonialism Politics, Identity and Culture. Palgrave Macmillan: NewYork

Glenn, E. N. 2015. "Settler Colonialism as Structure: A Framework for Comparative Studies of U.S. Race and Gender Formation" in *Sociology of Race and Ethnicity* 1(1): 54-74.

Hilal, J. (1976). "Imperialism and Settler-Colonialism in West Asia: Israel and the Arab Palestinian Struggle" in Utafiti: *Journal of the Arts and Social Sciences,* University of Dar Es Salaam: 51-69

Hixson, W. L. (2013). *American Settler Colonialism*. Palgrave Macmillan: New York.

Krautwurst U. (2013). "What is settler colonialism? An anthropological meditation on frantz fanon's 'concerning violence'" in *History and Anthropology* 14(1): 55-72

Lloyd, D. (2012). "Settler Colonialism and the State of Exception: The Example of Palestine/Israel" in *Settler Colonial Studies* 2(1): 59-80

Loomba, A. (1998). *Colonialism/postcolonialism*. Routledge: London.

Macqueen Norrie, Colonialism (Edinburgh Gate: Pearson Education Limited, 2007)

Mansour, A. I. (2011). Orientalism, Total War and the Production of Settler Colonial Existence: The United States, Australia, Apartheid South Africa and the Zionist Case. thesis for the degree of Doctor of Philosophy in Politics, University of Exeter.

Mitchell, Th. G. (2000). *Native vs. settler : ethnic conflict in Israel/Palestine, Northern Ireland, and South Africa*. Greenwood Press: Westport.

Osterhammel, J. (2010). *Colonialism: A Theoretical Overview*. Markus Wiener Publishers: Princeton

Rodinson, , M. (1973). *Israel: A Colonial-Settler state?*. Monad Press: New York.

Shafir, G. (1989). *Land, Labor, and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict,* 1882-1914. University of California Press: California.

Silverstein, B. (2011). "Indirect Rule in Australia: A Case Study in Settler Colonial Difference" in Fiona Bateman and Lionel Pilkington (ed.) *Studies in Settler Colonialism Politics, Identity and Culture*. Palgrave Macmillan: NewYork.

Veracini, L. (2010). *Settler Colonialism A Theoretical Overview*. Palgrave Macmillan: NewYork.

— (2011). "Introducing." In *Settler Colonial Studies*. 1 (1): 1-12

— (2013). "'Settler Colonialism': Career of a Concept" in The *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 41 (2): 313-333

— (2014)." Understanding Colonialism and Settler Colonialism as Distinct formations" in *Interventions*, 16(5): 615-633

— (2015). *The Settler colonial Present*. Palgrave Macmillan: NewYork.